

دور الدول الأجنبية في الحرب الأهلية الإسبانية

أ. بلعزوز العربي*

كانت الدولتين الجارتين ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية منعزلتين أوروبا ودوليا قبل 1936 بسبب خروج ألمانيا من عصبة الأمم وتماديها في التسلح دون الاكتراث بالاجتماع الدولي مكذا إيطاليا التي حاولت خلق إمبراطورية إفريقية لها باحتلالها إثيوبيا سنة 1935

إن الحكومتين الإيطالية والألمانية - بسبب تلك العزلة - رأتا في المواجهة الإسبانية الفرصة للتقارب والتحالف , مما سيخلق جوا ملائما لمواجهة أكثر شمولية لاحقا.

أ- مشاركة الدول الأجنبية في الحرب الأهلية الإسبانية :

1 : دور إيطاليا في الحرب :

إن الحرب الأهلية الإسبانية كانت بالنسبة لموسوليني فرصة لتجربة الأسلحة الإيطالية على عدو آخر غير القبائل الإثيوبية وإيجاد قواعد مهمة في المتوسط (1) .

وهي سياسة تسعى من خلالها إيطاليا لفرض وجودها في البلقان على السواحل الشرقية للمتوسط وإسبانيا على الحدود الغربية له ، كما أن موسوليني سعى من خلال دعمه لفرانكو إلى دفع هذا الأخير بعد الفوز إلى الوقوف في وجه الإمدادات الفرنسية من شمال إفريقيا في حالة قيام حرب ايطالية فرنسية(2) .

إن البداية الحقيقية لوصول الجنود الإيطاليين إلى إسبانيا بأعداد كبيرة كان منذ نوفمبر 1936 كالاتي :

- في 29 ديسمبر ذهب 3000 جندي من القمصان السوداء باتجاه إسبانيا .
- تبع هذا العدد بـ 1500 جندي متعدد الاختصاصات .
- في 14 جانفي وصلت قوات أخرى بلغت 4000 رجل ، وقوات أخرى انطلقت من إيطاليا بين 22 و26 جانفي 1937

* أستاذ مساعد جامعة الشلف

هذه الحملات رفعت القوات الإيطالية في إسبانيا في فبراير 1937 إلى 50 ألف رجل وتشير الإحصائيات إلى أن مجموع القوات الإيطالية المشاركة في الحرب بلغت 75 ألف رجل.

أما عن السلاح الإيطالي المقدم إلى قوات الجنرال فرانكو⁽³⁾ فكان كما يلي :

660 طائرة مختلفة و 800 قطعة مدفعية وضعت تحت قيادة الجنرال ايطوري مانكا وهو من قدماء الحرب العالمية الأولى و 150 دبابة و قاذفات للنيران بالإضافة إلى 1414 مركب غائرة و 7660 آلة متحركة و 1672 طن من القنابل علاوة على 91 قطعة بحرية إيطالية شاركت في الحرب إلى جانب عدد من الغواصات . و بلغت التكلفة الإجمالية لتلك المساعدات 430 مليون دولار .

و من المعارك الأولى التي خاضتها هذه القوات هي الهجوم على ملقا في 3 فبراير 1936 و التي دخلتها القوات الوطنية يوم 8 فبراير، وفي العاشر منه احتلت مدينة مورتيل . كان الاستيلاء على ملقا مهم جدا من الناحية الإستراتيجية لأنها مدينة أساسية لتموين الجيوش ، حيث أصبح الإيطاليون بعدها يمدون قواتهم بكل سهولة⁽⁴⁾.

وحتى الملك الفونس 13 كان من حين لآخر يتصل بموسوليني من منفاه لدعوته للإسراع في تسليم طلبات الأسلحة لنوثنين خاصة بعد أن تأكد من نجاح الكاتب الفرنسي أندري مالرو في التوسط للجمهوريين الأسبان لدى حكومة بلوم الفرنسية بإرساله لهم عدة طائرات حربية⁽⁵⁾.

2. دور ألمانيا :

إن ألمانيا عكس إيطاليا لم تكن لديها أطماع مباشرة وآنية في المتوسط ، وانتصار فرانكو ليس ضروريا لأن برلين لا تملك أطماعا سياسية في إسبانيا و لذلك فقد تردد هتلر من مساعدة الوطنيين في اسبانيا في حين عارض غورنغ الفكرة خوفا من تسميم العلاقات بين بلاده وبين فرنسا و إنجلترا التي كانت تبدو مع الجمهورية لتشابه الحكومات ولذلك وجب تقلص معطيات قوية لهتلر لإقناعه بمساعدة فرانكو. و تكفل بهذه

المهمة الأميرال كناري⁶ قائد المصلحة السرية للجيش بمدحه للجنرال الذي كان قد التقى به عندما كان في اسبانيا الأمر الذي اقنع هتلر .

إن حكومة ألمانيا لم ترد إقحام قوات كبيرة في مغامرة تعتبرها بدون مخرج⁽⁷⁾ ، كما أن قواتها ليست متهيئة بعد لخوض حرب خارج ألمانيا وعلى هذا الأساس كانت المساعدات الألمانية إلى إسبانيا محدودة ، وبقيت كذلك لأن الوسط العسكري الألماني كان لا يضع ثقة في الجنرالات الإسبان . ولذلك لم تعتمد القوات الألمانية في إسبانيا 14 ألف رجل طيلة كل الحرب الأهلية ، وهي قوات جمعت أساسا منذ نوفمبر 1936 في فيلق النسر المختص في السلاح الجوي و الدبابات و المدفعية المضادة للطائرات وعدد قواته خمسة آلاف رجل ، قبل أن ترسل برلين قوات أخرى من المدربين و الماطرين و بعض الموظفين شريطة أن تكون هذه القوات تحت إدارة قائد ألماني على اتصال مباشر مع فرانكو . كما تمثلت المساعدات من السلاح في 600 طائرة و 200 دبابة ومعدات للاتصال بتكلفة إجمالية بلغت 225 مليون دولار⁽⁸⁾

كان هتلر يهدف من خلال دعمه لفرانكو عسكريا منذ 26 شهر جويلية إلى قطع الطريق أمام الشيوعيين بمنعهم من السيطرة على جبل طارق لدرجة انه سلم طائرات لنقل الجيش الإفريقي إلى اسبانيا رغم أنها لم تكن ضمن الطلب⁽⁹⁾ .

أما الهدف الاستراتيجي البعيد الذي سعى إلى تحقيقه هتلر فهو تحويل أنظار الدول الغربية إلى اسبانيا للسماح باستمرارية التسليح السري لألمانيا بسبب الخطر الجزئي المطبق عليها وفق بنود معاهدة فرساي 1919 .

بالإضافة إلى انه ظن أن نجاح فرانكو سيخلق قوة حليفة له تقف في وجه الاتصالات البحرية البريطانية الفرنسية⁽¹⁰⁾ . دون نسيان حاجة ألمانيا الماسة إلى المعادن الاسبانية من ضفتي المتوسط .

3 . دور الإتحاد السوفيتي :

لم يرد الإتحاد السوفيتي التدخل في الصراع الداخلي الإسباني في البداية ، فحكومة ستالين لم تكن لديها أية دوافع لتشجيع أو دعم المنظمات الثورية الإسبانية المختلفة لأنها لا تتعاطف جميعها مع نظامه ، أضف إلى ذلك أنه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين البلدين قبل الحرب لان العلاقات الثنائية الرسمية بين الجمهورية الإسبانية و روسيا لم توقع إلا في أوت 1936 و الحرب الإسبانية قائمة، أي عشية التوقيع على اتفاقية لندن لعدم التدخل علاوة على أن إسبانيا في نظر ستالين لم تكن سوى وضعية ثانوية في وسط جو دولي يبعث على القلق . ولهذا كله لم يرد ستالين المجازفة في صراع خارجي واتخذ منه موقف الحذر خاصة بعد نشر مرسوم موسكو بتاريخ 31 أوت 1936 الذي يمنع التصدير وإعادة التصدير والعبور نحو إسبانيا لكل أنواع الأسلحة والذخيرة والعتاد الحربي .

إن هذا المرسوم لم يحترم من طرف روسيا أكثر من ستة أشهر ، لأنه أصبح من غير المعقول أن بلد الاشتراكية تبقى منعزلة وبعيدة عن الحركة العامة لمساعدة إسبانيا خاصة بعد التعاطف الكبير للعديد من دول العالم مع الجمهورية الإسبانية حتى داخل الوسط الاشتراكي في الدول الغربية ، وهذا كي لا يفقد الإتحاد السوفيتي المتعاطفين معه في الخارج. و لذلك فقد مر الموقف السوفيتي تجاه الحرب الإسبانية بثلاث مراحل متباينة

- موقف محايد في البداية مصحوب بعبارات التعاطف والتضامن.
- دعم مباشر للجمهورية منذ أكتوبر 1936 من خلال مجهود عسكري معتبر .
- تباطيء مستمر في المساعدات والدعم العسكري بداية من صيف 1938 الذي انتهى بالتخلي النهائي على الجمهورية.

وتمثلت المساعدات الروسية فيما يلي 1000 طائرة مختلفة و 900 دبابة و 1550 قطعة مدفعية و 5000 شاحنة و 9579 سيارة عسكرية و 14889 طن من البترول بالإضافة إلى مئات الآلاف من

وحدات الأسلحة الخفيفة علاوة على 450 طن من الألبسة و325 طن من المواد الطبية المختلفة بتكلفة إجمالية فاقت 700 مليون دولار⁽¹¹⁾.

بدأت المساعدات العسكرية الروسية إلى إسبانيا - التي أعلن عنها منذ بداية سبتمبر 1936 - سرية بسبب مرسوم عدم التدخل الذي وقعت عليه الدول الكبرى في لندن ولذلك فقد شكلت شركات خاصة كلفت بشراء الأسلحة ونقلها إلى إسبانيا عبر أوديسا وهي نفس الطريقة المستعملة من قبل ألمانيا من خلال شركة (هيسما) - الشركة الإسبانية المغربية للنقل - لتغطية المساعدات الألمانية، كما استعملت كذلك نفس الطريقة في وهران باستعمال السفن الخاصة لنقل مختلف المواد إلى إسبانيا.

إن سياسة ستالين تمثلت في عدم ترك الجمهوريين الإسبان يخسرون و ليس بالضرورة مساعدتهم على النجاح وهذا يدل على أن تماطل ستالين في دعمه للجمهورية كان خاضعا لإستراتيجية مدروسة تملئها المصلحة العليا للاتحاد السوفيتي بحيث أن مجريات الحرب الإسبانية تترك لستالين حرية التحرك في هذا الاتجاه أو ذاك ليربح الوقت في ظل جو دولي جد متوتر.

كما أن ستالين كان يعي أن نجاح فرانكو يجعل فرنسا محاصرة من ثلاث جهات بدول عدوة مما قد يسهل على ألمانيا القيام باعتماد على روسيا دون الخوف من خطر الهجوم عليها من الخلف من قبل فرنسا لذلك وجب دعم الجمهوريين قبل أن يتحول ذلك الدعم إلى حذر شديد.

رغم أن الجبهة الشعبية الإسبانية كانت تمثل لدى بعض الشيوعيين في أوروبا الأمل الكبير بعد انكسار القوات اليسارية في كل من إيطاليا و ألمانيا على التوالي. كما اعتبر الاتحاد السوفيتي وألمانيا و إيطاليا الصراع الداخلي الإسباني فرصة ثمينة لتجربة أسلحة كل طرف من خلال مقارنتها بأسلحة الأطراف الأخرى كما اعتبرت كذلك ساحة لتربص الخبراء الروس و غيرهم لأخذ الدروس حيث أن أهم الجنرالات الروس خلال الحرب العالمية الثانية كانوا ممن شاركوا في الحرب الأهلية الإسبانية.

و تحب الإشارة إلى أن هذا الدعم الروسي هو تجاري صرف على غرار الدعم الألماني لفرانكو ، بحيث ومنذ المشاورات الأولى تقرر بأن ذهب بنك إسبانيا هو الذي سيمول هذه المساعدات الروسية⁽¹²⁾، في حين اختارت ألمانيا أن تستغل مقابل ذلك ثروات المناجم المختلفة في إسبانيا الوطنية وبشمال المغرب.

إن الأسلحة الوافدة إلى إسبانيا ليست دائما ذات جودة عالية سواء أكان مصدرها روسي ، بولوني ، تشيكوسلوفاكي أو فرنسي . فإسبانيا لم تكن فقط مسرحا لتجربة الأسلحة الحديثة بل كانت كذلك فرصة للتخلص وبثمن جيد من الأسلحة القديمة التي تملأ المستودعات العسكرية⁽¹³⁾ .

إن الجمهوريين الاسبان بالإضافة إلى الدعم السوفيتي استفادوا كذلك من المتطوعين في إطار الألوية العالمية الذين قدموا من عدة دول (فرنسا ، ألمانيا، إيطاليا، براونيا، المجر . يوغسلافيا، بريطانيا، الولايات المتحدة و بلغاريا...) و بلغ مجموعهم نحو 35 ألف رجل⁽¹⁴⁾ لم يكن كلهم حاملي السلاح بل كان منهم الكثير من القطاع الصحي كالأطباء و الممرضين، كما التحق بهم نحو 800 متطوع من دول عربية⁽¹⁵⁾ إن مشاركة الجزائريين كانت ضمن صفوف المهاجرين من مناضلي (نجم شمال إفريقيا) حيث أكد لي ذلك هنري علاق (Henry Alleg)⁽¹⁶⁾، وأهم الأسماء ذكر لي (اوسيدهم رابح) الذي كان قائد فرقة بلدية باريس برتبة رائد و الذي قتل في الحرب، و من الجزائر ذكر لي (قسوم دحمان) الذي فقد رجلا وساقا في الحرب و رغم الإعاقة عمل اثر عودته للجزائر بجريدة Alger Republican خلال سنوات و كذا (صنعاء لطاهر) الذي انتخب بعد رجوعه مستشارا عاما لمدينته القليعة⁽¹⁷⁾.

كما أن السلطات البريطانية في جبل طارق وضعت تحت تصرف الجنرال كاندرايان - ضابط سلاح الجو الذي كان في اتصال مباشر مع الوطنيين - خطوط الهاتف التي من خلالها يمكنه الاتصال مباشرة مع برلين و روما خلال الأسابيع المقبلة ، كما منعت السلطات البريطانية في بلندن بتاريخ 31 جويلية 1936 تصدير الأسلحة إلى إسبانيا، و قد يكون ذلك بهدف قطع الطريق أمام الجمهوريين الذين كانوا يهددون مصالح

بريطانيا في اسبانيا حيث كانت من أهم الدول المستثمرة بها بنحو 40 مليون جنيه إسترليني ما يعادل 194 مليون دولار⁽¹⁸⁾

4 . دور المغرب الأقصى:

لا يمكننا الحديث عن دور المغرب في هذه الحرب كدولة وإنما كأشخاص نظرا لخضوعه للحماية المزدوجة الاسبانية في الشمال و الفرنسية فيما تبقى من البلاد . لقد لعب ممثلو الاستعمار و الحماية في المغرب دورا كبيرا في تجنيد المغاربة في صفوف الجيش الإفريقي التابع لفرانكو بعد أن ألزمتهم تلك الإدارة بتجنيد 500 شخص من كل قبيلة ، حيث بلغت القوات العسكرية تحت راية الحماية الإسبانية حوالي 40 ألف رجل عشية 18 جويلية 1936 في منطقة الشمال ، إضافة إلى سبعة عشر ألف رجل أخرى ضمن التجنيد الإجباري .

لقد انخرط المغاربة بكثافة في صفوف الجيش الإسباني وذلك هروبا من الفقر والبؤس بسبب الجفاف الذي ضرب البلاد سنتي (1934-1935) الأمر الذي سهل مأمورية القيادة في حملاتهم التحسيسية الواسعة النطاق لتجنيد سكان الريف.⁽¹⁹⁾

إن هذه القوات المغربية كانت رهن إشارة فرانكو وبالمقابل كان الجنود المغاربة يحصلون على الأكل والشرب واللباس والراتب.وعندما أبدت بعض القبائل مقاومة ضد هذه المشاركة عمد فرانكو إلى مغازلة الشعور الديني لدى المسلمين باللجوء إلى شيوخ الطرق الصوفية وكذا عبر العمل على بناء المساجد (مسجد تيطوان وملييلية) لضمان أكبر عدد من المجندين المغاربة في صفوف قواته .

بلغ عدد المغاربة المجندين في صفوف الوطنيين إلى غاية سنة 1937، 50 ألف مجند وأن مجموع المغاربة المجندين وصل إلى ما يقارب 65 ألف و فيهم حتى من تقلد رتبا سامية (كمحمد امزيان بلقاسم) الذي أصبح رائدا في صفوف قوات فرانكو بعد أن تابع دراسته بالأكاديمية العسكرية بطليطلة و شارك في الهجوم المعاكس ضد الجمهوريين في معركة نهر الابر في سبتمبر 1938⁽²⁰⁾.

إن هذه الأرقام توضح بجلاء عدم نجاح النداء الذي أطلقه (أزرقان) وزير خارجية جمهورية الريف على عهد محمد بن عبد الكريم الخطابي ، من فاس للشعب المغربي حول عدم الامتثال لأوامر القياد⁽²¹⁾. وفي المقابل عمد الفرانكاويون إلى توظيف مختلف الوسائل والآليات لإقناع وإجبار المغاربة على الانخراط والتسجيل في قوائم التجنيد ، ومن ذلك توسيع نطاق التجنيد ليشمل كل المنطقة الاسبانية ، بل وشمل التجنيد كذلك مناطق أخرى كانت تحت الحماية الفرنسية قبل أن يصبح التجنيد فيها ممنوعا منذ ربيع 1938.⁽²²⁾

كان موقف الحركة الوطنية في الشمال من الحرب الأهلية الإسبانية هي تعاطفها مع اليسار الإسباني في البداية قبل أن ينقلب زعيم هذه الحركة (عبد الخالق الطريس)⁽²³⁾ لنصرة فرانكو مع نهاية سنة 1936 بعد أن سمح له بتأسيس حزب الإصلاح الوطني⁽²⁴⁾

إن تمادى فرانكو في الاعتماد على مواقف العديد من الشخصيات السياسية والدينية المغربية خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية لدعم وحشد التأييد لحركته استرعى تدخل الملك محمد الخامس في نهاية سنة 1937 من خلال إصداره للظهير الشريف الذي منع فيه المغاربة من المشاركة في الحرب الأهلية الإسبانية . رغم أن هذا الظهير جاء متأخرا إلا انه ساهم في تقليص عدد المجندين المغاربة في صفوف فرانكو بالخصوص الأمر الذي يؤكد شعبية و سلطة الملك محمد الخامس رغم الحماية المزدوجة على بلاده . إذا كانت ألمانيا وإيطاليا وروسيا قد أقحمت نفسها في الحرب الأهلية الإسبانية بدعم هذا الطرف أو ذاك بالآلة الحربية من طائرات ودبابات ومدفعية ، وبعض الخبراء والتفنيين والجيوش ، فإن القوات المغربية كانت بمثابة حطب النار ، لأنهم كانوا قوة صدام في المرحلة الأولى للحرب الأهلية تقوية للنفوذ الفرانكاوي.

وفي المقابل، بدأت صورة المورو⁽²⁵⁾ الشرير تأخذ مكانها في خطاب اليسار وهي الصورة التي ظلت عالقة بالأذهان حتى اليوم لدى معظم الجمهوريين الإسبان لأن المغاربة لم يشاركوا في الحرب الأهلية فحسب في صفوف فرانكو، بل شاركوا كذلك بالأمس القريب في دحر وقمع ثورة أستورياس شمال إسبانيا سنة 1934 في صفوف قوات ذات الجنرال .

وعلى كل فإن جهود الجمهوريون لزعزعة أنصار فرانكو من خلال مساعيهم المتعددة والمختلفة من أجل تجنيد المغاربة في صفوف القوات الجمهورية ، إلا أن عدد المغاربة في صفوف هذه القوات كان جد محدود⁽²⁶⁾.

كان بإمكان حكومة الجبهة الشعبية بقيادة لارغو كباليرو⁽²⁷⁾ تجنب كل تلك المشاركة المغربية في صفوف فرانكو بمنحه الاستقلال للمغرب كما كان مبرجما قبل بداية الحرب. كل الأطراف السياسية في إسبانيا داخل الحكومة و في المعارضة وحتى الوطنيين المغاربة كانوا على وعي بان تنفيذ ذلك البرنامج سيحدث ارتباكا كبيرا في صفوف المغاربة المجندين في صفوف فرانكو.

عندما حاولت حكومة الجبهة الشعبية الاسبانية إيجاد صيغة للتحالف مع الوطنيين في المغرب سنة 1936-1937 وجدت عقبة كبيرة لان ذلك تعدى صلاحيات البيت الاسباني و الحرب قائمة لان فرنسا و بريطانيا التي تأمل ذات الحكومة دعمهما في حربها ضد فرانكو لهما مصالح استعمارية في المغرب العربي بالنسبة لفرنسا و في مصر و فلسطين بالنسبة لبريطانيا.

أدرك رئيس الحكومة أن اتخاذ قرار منح الاستقلال لشمال المغرب قد يثير ثورة عارمة في كل تلك المناطق، الأمر الذي يهدد مصالح الخليفيتين المحتملتين ولذلك قررت كباليرو اتخاذ سياسة معاكسة⁽²⁸⁾.

أما الحصيلة فكانت ثقيلة بالنسبة للمغرب والمغاربة من خلال الآلاف من المجندين الذين لم يعودوا إلى وطنهم ، كما أن توظيف العمل الجوي في العمليات الحربية باستعمال الطائرات في قصف القرى والمدن وسحق سكانها من خلال مسلسل استعمال الغازات السامة بالريف ، خلق عاهات جسدية ونفسية لازالت تلقي بظلالها إلى اليوم في المنطقة .

ب . الحرب الأهلية الإسبانية و الجزائر :

1 . تأثير الحرب الأهلية الإسبانية على الطبقة السياسية في وهران :

كان عدد الإسبان في الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر 114320 نسمة 53% منهم يتمركزون بـوهران حسب إحصائيات سنة 1886 وبقيت تلك النسبة ثابتة. حيث ووفق إحصائيات أخرى أجريت سنة 1936 -عشية الحرب الأهلية الإسبانية - تقول بأنه من بين 200 ألف نسمة تعداد سكان وهران 100 ألف منهم كانوا ذوي أصل إسباني⁽²⁹⁾.

و كان هؤلاء الإسبان يشكلون الطبقة الوسطى في المجتمع الوهراني بين السكان ذوو الأصل الفرنسي والجزائريين (الأهالي) إلا أن بعض عناصر هذه الجالية ارتقوا اجتماعيا حيث كان منهم ملاك كبار للأراضي الفلاحية (من 400 إلى 1000 هكتار) في طريق السانيا وعين تموشنت ومزارع واسعة في المحمدية وسيدي بلعباس .

كما كان لهم وجود كبير في كل من موانئ وهران، أرزيو وبني صاف ومن هذا المنطلق كان من الطبيعي أن تكون مدينة وهران أكثر شعورا بالمأساة الإسبانية من غيرها من المدن الجزائرية.

إلى جانب هذا النجاح الاجتماعي كانت مدينة وهران تعج بعائلات إسبانية ذات دخل ضعيف ووضعية اجتماعية سيئة تعيش في الأحياء السفلى للمدينة وفي الضواحي وهذا ما يفسر انقسام الجالية الإسبانية في وهران أثناء الحرب الأهلية الإسبانية و حتى قبلها بين مؤيد للجمهورية و معارض لها وهو انعكاس لما كان حاصل في إسبانيا عشية الحرب الأهلية.

لم يكن اسبان وهران متحمسين جميعهم للانتخابات التشريعية لـ 16 فبراير بحيث سجلت غيابات كثيرة وسط هذه الجالية فمن مجموع 35 ألف مسجل غاب نحو 7000 شخص⁽³⁰⁾ مما بين عدم اهتمام بعض سكان وهران من الاسبان بالمشاركة في الحياة السياسية لبلادهم .

جاءت نتائج الانتخابات في وهران مطابقة لمثيلتها في اسبانيا حيث أتاح تحالف التيارات اليسارية بوهران مع يهود المدينة من تحقيق الفوز في الانتخابات، وتحصل المعلم ماريوس دي بوا على مقعد في البرلمان عن الجبهة الشعبية الاسبانية وأصبح يمثل الجالية الاسبانية لوهران الأمر الذي استرعى إقامة احتفال بتلك المناسبة في المدينة و حتى في اليكونت الاسبانية على بعد 300 كلم في الضفة المقابلة للبحر وهو ما يوضح التقارب القائم بين المدينتين خاصة منذ سنة 1934⁽³¹⁾ . كانت السلطات الفرنسية في وهران تراقب تطور هذا التقارب عن كثب وذلك لتلافي أي مشادة محتملة بين مختلف الحساسيات السياسية في المدينة ولذلك استدعى لامبار رئيس بلدية وهران سنة 1936 كل من سبورتيس ممثل الاتحاد العام للعمال CGT و زينيتاتشي عن الحزب الشيوعي حيث أكد لهما عن وجوب الإبقاء على هذه الاتصالات في إطار العلاقات الأخوية بين الشعبين فقط.

إلا أن والي وهران وهو يستقبل بعثة اليكونت في سيدي بلعباس في جوان 1936 اظهر تعاطفه المطلق مع الجبهة الشعبية في اسبانيا من خلال الاستماع إلى النشيد الوطني الاسباني والنشيد الدولي "L'international" و بشعارات يسارية الأمر الذي اعتبره لامبار⁽³²⁾ استفزازا، حيث جاء رده سريعا من خلال تشكيكه للتجمع الوطني للحركة الاجتماعية وهو تجمع يضم تيارات أقصى اليمين في وهران بغرض محاربة الجبهة الشعبية. و بذلك أصبح لأقصى اليمين و الوسط الكاثوليكي في وهران إطار سياسي يمكنهم من القيام بمحلتهم الدعائية ضد الجبهة الشعبية لمعارضة أي تحرر في النظام السياسي في الجزائر، لان توسيع الاقتراع العام للعرب لا يقوي سوى وضعية اليسار. وفي هذا إشارة إلى مشروع بلوم فيوليت في الجزائر

لسنة 1936 والذي عارضته بشدة تيارات أقصى اليمين ومن ثم تيارات الوسط الكاثوليكي باعتبار أن رئيس بلدية وهران لامبار كان من رجالات الكنيسة الكاثوليكية.

انضم إلى هذا التجمع الوطني كذلك بلاط رئيس بلدية سيدي بلعباس الذي باشر حملة دعائية لتجنيد المغاربة في صفوف فرانكو في ضواحي مليلية.

منذ بداية الحرب الأهلية الإسبانية أصبح إقليم وهران ساحة لنشاط الفاشيين بعد تأسيس الاتحادات اللاتينية في وهران و سيدي بلعباس حيث نجح نائب القنصل الجمهوري مايول من محاولة اختطاف، مما شجع قوماريس دو لاتوري القنصل الإسباني العام في وهران على حشد كل الطاقات اليسارية في المدينة لمساعدة الجمهوريين في حركهم ضد فرانكو خاصة بعد أن أعلنت فرنسا رسميا عدم تدخلها في الحرب.

2 . موقف مدينة وهران من الحرب :

اتبعت السلطات الفرنسية التابعة لحكومة الجبهة الشعبية في وهران سياسة حياد جد ايجابي مع الجمهورية الإسبانية - بسبب الموقف الرسمي للحكومة - بجعلها ميناء وهران محطة عبور للأسلحة والعتاد والذخيرة الموجهة إلى الجمهورية الإسبانية بالخصوص ، لكون مدينة وهران لا تبعد عن السواحل الإسبانية إلا بحوالي 300 كلم، مما يسمح بقطع تلك المسافة في ليلة واحدة فقط تمكن من تضليل المراقبين التابعين للجنة عدم التدخل، حتى أن السفن الروسية القادمة من أوديسا كانت مؤمنة من طرف شركات إنجليزية وجاء في عقد التأمين بأنه في حالة الخطر يمكنها الالتحاق بالموانئ الجزائرية وتحص بالذكر ميناء وهران ، و إن اقتضى الأمر فإن تلك السلع تحمل ليلا في سفن فرنسية على دفعات إلى الضفة المقابلة.

كانت الشركات المحلية تنتهر فرصة الحرب الإسبانية للرفع من تكاليف نقل السلع حيث وصلت تكاليف الطن الواحد باتجاه اسبانيا 250 فرنك مقابل 50 فرنك للطن في الظروف العادية.و مع ذلك فإن الحركة البحرية من و إلى وهران ازدادت بنسبة 250 بالمائة مقارنة بأوقات السلم حسب ما توضحه الأرقام التالية: عدد البواخر(السفن):

الفترة	الوصول من إسبانيا	الذهاب إلى إسبانيا
جويلية 1935	05	09
جويلية 1938	19	17

Revue d'histoire moderne et contemporaine : (juillet-septembre 1975).

كما شهد ميناء وهران سنة 1937 حركة بحرية غير اعتيادية من قبل بعض السفن التابعة للأسطول التجاري الروسي إلى درجة أن تيار أقصى اليمين بالمدينة راح يراقب هذه الحركة عن كثب وقام بتزويد الوطنيين بتفاصيل دقيقة عن تحركات السفن الفرنسية البريطانية ، الروسية وحتى الإسبانية مصحوبة برسومات دقيقة لهماكلها ، الأمر الذي جعل الطائرات الفرانكاوية أكثر نجاعة في إصابة أهدافها من ذي قبل⁽³³⁾ . ومع ذلك فإن طائرات الوطنيين الإسبان لم تمنع استمرارية وصول الرجال و العتاد إلى إسبانيا .

تكفل المركز الثقافي الإسباني بوهران (centro cultural d'Oran) بمهمة التجنيد في صفوف الإسبان وحتى الفرنسيين بمباركة الجبهة الشعبية الفرنسية التي كلفت عناصرها المعنيين بالعملية بمرافقة المرشحين للتجنيد إلى المكاتب المخصصة لذلك ، وكان المواطنون الإسبان لا يتلقون تعويضات في حين كان الفرنسيون يتحصلون على 25 بيسيطة يوميا . وكانت حركة السفن الحاملة لهؤلاء عادية منذ سبتمبر 1936 من مينائي وهران وأرزيو.⁽³⁴⁾

إن مجهودات المركز الثقافي الإسباني بوهران تضاعفت رغم الصعوبات المالية التي كان يواجهها ، ومن بين المتطوعين نذكر الرائد باسكي المولود بوهران الذي انظم إلى الألوية العالمية وأصبح القائم بالتجنيد في المغرب الفرنسي والجزائر .

وكانت وهران والمغرب مصدرا مهما للمتطوعين في صفوف كلتا الجبهتين، حيث كان متطوعو الدار البيضاء المغربية من الجمهوريين من المنطقة الشمالية التابعة لإسبانيا يعبرون إلى وهران عبر وجدة ، كما كان الإسبان المتطوعون في صفوف الوطنيين من الجزائر يلتحقون بالمغرب الإسباني عبر الحدود .

لقد حاولت حكومة الجمهورية الإسبانية تجنيد الأهالي الجزائريين ليكونوا ندا للمغاربة الذين هم في صفوف جيش فرانكو ، إلا أن هذه المحاولة لم تحقق نجاحا يستحق الذكر باستثناء حالات قليلة لم يتم تجنيدها بل كانت ضمن المتطوعين في صفوف الألوية العالمية.

تجرب الإشارة إلى أن استقبال تجنيد المتطوعين من الأوربيين أصبح ممنوعاً منذ فبراير 1937 حيث قل العدد في الجزائر في حين استمرت العملية في المغرب الفرنسي من خلال وصول عدة متطوعين إلى الجزائر عبر الحدود ، وينقل هؤلاء بقوارب إلى خارج ميناء وهران أين تنتظرهم السفن المتوجهة إلى اسبانيا وهو ما يثبت وجود تنسيق بين السلطات المحلية في المغرب الفرنسي وفي الجزائر في عهد حكومة الجبهة الشعبية في باريس حتى استقالة حكومة ليون بلوم⁽³⁵⁾ بتاريخ 21 جوان 1937 الذي خلفه كامي شوتون في إطار الجبهة الشعبية حتى جانفي 1938 .

لم يبق تيار أقصى اليمين الحديث النشأة في وهران-ظهر على اثر انتخابات 1936-موقف المتفرج من الدعم العلني للجبهة الشعبية للجمهوريين الاسبان بل جند طاقاته وكفاءاته لدعم الفرانكاويين من خلال تعبئة السكان ذوي الأصل الاسباني ضد التيارات اليسارية خاصة بعد زيارة لامبار في صيف 1937 لبيروغوس و التقائه بفرانكو.

ازداد على اثر ذلك التنسيق بين Gabriel Lambert رئيس بلدية وهران و Paul Ballat رئيس بلدية سيدي بلعباس من خلال الاتحادات اللاتينية التي تستثمر الأصل المشترك للاسبان و الفرنسيين لدعم فرانكو و بالمرّة زعزعة نفوذ الجبهة الشعبية المحلية التي تسعى إلى إيجاد فئة فرنسية من الأهالي تعدادها 21000 جزائري.⁽³⁶⁾

إن هذه المناورات التي قام بها اتجاه أقصى اليمين في وهران جاءت بعد توقف الحركة التجارية للمعمرين و إصرارهم على طلب فتح العلاقات التجارية مع فرانكو هو بغرض فتح المجال لهم لتصرف متوجاههم لدى طرف حليف .

لقد فرضت المعطيات الجغرافية و الظروف التاريخية على وهران تأثرها بالمأساة الاسبانية بل دفعتها حتى للمشاركة فيها ، بحيث عملت حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية على جعل ميناء وهران منطقة عبور لمختلف المعدات العسكرية و الغير العسكرية المتوجهة إلى الجمهورية الاسبانية بعد اشتداد الرقابة البحرية

تنفيذا لمعاهدة عدم التدخل كما شهد نفس الميناء إبحار الكثير من المتطوعين من غير الأهالي في قوات الألوية العالمية إلى جانب الجمهوريين.

كما تأثر المناخ السياسي لمدينة وهران كثيرا بتلك الحرب بحيث حولت وجهة التيارات السياسية للأوروبيين إلى تيارات متطرفة انعكاسا لما كان واقعا في الضفة المقابلة للبحر ومن ذلك تحول بعض الشخصيات السياسية المعروفة بإقليم المدينة إلى عناصر فاشية كلامبار و بلاط متناسين معنى الاتحادات اللاتينية التي أسسوها حديثا بهدف البحث عن القواسم المشتركة بين الشعبين الاسباني و الفرنسي .

وآخر حضور كان لوهران في هذه المأساة هو كونها كانت وجهة الآلاف من الجمهوريين الاسبان بعد انهزامهم في المواجهة العسكرية ضد الجنرال فرانكو.

الهوامش:

(1) - Broué Pierre et Témime Emile: La révolution et la guerre d'Espagne , Edition de minuit , Paris 1961 P : 317

(2) - THOMAS Hugh : La guerre d'Espagne (juillet 1936 – Mars 1939), Edition définitive, Edition Robert Laffont , 1985 Paris , P :274

(3)-جنرال و رجل سياسي اسباني 1892-1975 دخل الأكاديمية العسكرية سنة 1907،شارك في قمع ثورة الريف بالمغرب في 1926،عينه ازاناً حاكماً عسكرياً على جزر البليار في 1932،بعد عودة اليمين في 1933 أعيد إلى مدريد وعين جنرال في مارس 1934. بعد قضائه على تمرد استورياس عين قائدا للقوات المسلحة في المغرب و بعد مجيء الجبهة الشعبية سنة 1936 أبعد من جديد إلى جزر الكناري. عين قائدا أعلى للقوات المسلحة من جديد في 29 سبتمبر .

(4) - THOMAS Hugh : op_cit , P :319

(⁵) - ibid .

(⁶) - ولد في 1 جانفي 1887 -9 افريل 1945.التحق بالبحرية الألمانية سنة 1905 شارك في الحرب العالمية الأولى ،عين بعد الحرب في المصلحة السرية باسبانيا،و في سنة1934 أصبح قائد مصلحة الاستخبارات في القيادة الألمانية ABWEHR وبسبب عدائه الشديد للشيوعية فقد اتفق هتلر بدعم الجنرال فرانكو. عزل سنة 1944 بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر اعدم في افريل 1945 بأمر من هتلر . هتلر . 188. (نفس المرجع السابق).

(⁷)-THOMAS Hugh : opcit, P .326.

(8)-ibid ,p.751.

(⁹) - إن هتلر لم يكن حتى تاريخ 26 جويلية 1936 يعرف من هو فرانكو. لأنه عندما قبل استقبال مبعوثيه بذات التاريخ (ارائز بارن هاروت-لانتقامهم) واللدان طلبا منه 10 مدافع مضادة للطيران و 5 طائرات مطاردة وعتاد آخر سألهم عن من يكون هذا الشخص .لمزيد من المعلومات طالع: هيغ توماس ص276 .

(10)- THOMAS Hugh : op_cit , P 277.

(11) - Broué Pierre et Témime Emile: La révolution et la guerre d'Espagne , Edition de minuit , Paris 1961 P : 337 .

(2) - استعمل الاتحاد السوفيتي كذلك تلك المساعدات كضغط على الجبهة الشعبية لفرض وزراء في حكومتها من الشيوعيين .

(13)- THOMAS Hugh : op_cit , P :342

(14)- Bennassar Bertolomé : Histoire des Espagnols (2), XVIII ème - XXème siècle , Armant Colin 1985 , Paris , P :334

(5) - معطيات، قدمتها آمال رمسيس من مصر في إطار تحضيرها لفيلم وثائقي حول المشاركة العربية في هذه الحرب تذكر منهم نياقي صدقي وهو مثقف فلسطيني من مواليد 1905 بالقدس أرسل من قبل الكومنتارن إلى اسبانيا بين أوت و ديسمبر 1936.. كما تذكر كذلك نوري أنور رفيل عراقي من مواليد 1905. وابراهيم حريش شيوعي، عراقي مقيم بالاورغواي شارك في صفوف الألوية العالمية : من مجلة بيلتان دانفورماسيون العدد 107 الصادرة بتاريخ 30 سبتمبر 2007 بالفرنسية).

(6)- اسمه الحقيقي (Henry Salem) ولد بلندن 1921 ، عضو بالحزب الشيوعي الفرنسي و كان مدير جريدة Alger Républicain من 1951-1955 سنة توقيف الجريدة ، أُلقي عليه القبض في جوان 1957 وبسجن برباروس كتب كتابه السؤال حول التعذيب الذي يمارسه الاستعمار في السجون أثناء معركة الجزائر. بقي في الجزائر المستقلة حتى سنة 1965. يشغل حاليا الرئاسة الشرفية لقطب التحديد الشيوعي في فرنسا الذي أسس سنة 2004.

(7)-المعطيات المذكورة مصدرها رسالة الكترونية خاصة من السيد هنري علاقي بتاريخ 7 ديسمبر 2007.

(18)- Bennassar Bertolomé : op_cit , P :264

(19)-محمد زاهد ، " حفريات تاريخية حول مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الاسبانية 1936-1939". مجلة الحوار المتمدن العدد 1780 بتاريخ 30 ديسمبر 2006.

(20)-THOMAS hugh : op_cit, P :646

(21) - من مواليد مدينة الحسيمة سنة 1310 هـ الموافق ل 1889م تصدر المشيخة في قبيلة بني ورياغل في الريف الأوسط و عينه الأمير البطل عبد الكريم الخطابي بعد اندلاع حرب الريف ووزيرا للخارجية في حكومته.

(22)- KOERNIER Francis : « Les répercussions de la Guerre d'Espagne en Oranie », Revue d'histoire moderne et contemporaine , (juillet-septembre 1975), p 482

(23)-مناضل ووطني مغربي ومن رجالات الحركة الوطنية ولد بتطوان سنة 1910 وتوفي بطنجة سنة 1970 اصدر أول جريدة وطنية مغربية بالعربية هي الحياة الأسبوعية في 1934 وأسس حزب الإصلاح الوطني في 18 ديسمبر 1936 عين بعد الاستقلال سقيرا لبلاده في إسبانيا ثم وزيرا للعدل سنة 1960 دمج حزبه مع حزب الاستقلال وأصبح عضوا في لجنته الوطنية.

(24)- ينفي الاستاذ المغربي محمد بن عزوز حكيم فكرة غض عبد الخالق الطريس الطرف عن تجنيد المغاربة في صفوف قوات فرانكو مقابل السماح له بتشكيل حزب الإصلاح في كتاب : موقف الموروس من التمرد الفرانكاوي، حسب مجلة شبكة الذاكرة العربية المغربية.

- (25) - هي التسمية التي اشتهر بها الجنود المغاربة الذين كانوا في صفوف قوات الجنرال فرانكو.
- (26) - يذكر كورنييه أن عدد الجنود المغاربة في صفوف الجمهوريين كمتطوعين استمر في الوصول إلى وهران عبر الحدود قبل انتقالهم إلى اسبانيا.
- منذ 1894 قبل أن يصبح PSOE ولد بمدريد في 15 أكتوبر 1869 انضم إلى الحزب الاشتراكي العمالي الاسباني - (27) من 1918 UGT رئيسا له سنة 1925 بعد وفاة مؤسسه بابلو ايجليزياس كما كان الأمين العام للاتحاد العام للعمال التابع للحزب إلى 1938. أصبح وزيرا للعمل سنة 1931 في حكومة الكالا زامور إلى غاية 1933. عين رئيسا للحكومة ووزيرا للحزب في سبتمبر 1936 ليستقيل في ماي 1937. توفي في بباريس في 23 مارس 1946.
- (28) - Broué Pierre et Témime Emile , op_cit, pp , 240-24
- (29) - KOERNIER Francis : « **Les répercussions de la Guerre d'Espagne en Oranie** », Revue d'histoire moderne et contemporaine , (juillet-septembre 1975), p 482.
- (30) - KOERNIER Francis : op_cit, p 484.
- (31) - ibid., p.487.
- (32) - هو رئيس بلدية وهران الثالث . الثلاثين انتخب يوم 12 ماي 1934 واستلم مهامه في 18 ماي إلى غاية 1941، ترشح في الانتخابات التشريعية لفرابر 1936 إلا أنه انهزم من طرف الاشتراكي ماريوس دي بوا. عندما قررت حكومة الجبهة الشعبية حل كل الحركات الوطنية اليمينية قام بتأسيس فدرالية المنتخبين الوطنيين تحت رئاسته. عارض مشروع بلوم فيوليت وأسس الصداقة اللاتينية لمقاومة الجبهة الشعبية. كما أيد فرانكو تأييدا مطلقا خاصة بعد زيارته له في بيرغوس في شهر ديسمبر 1937 .
- (33) - عدد من هذه الرسومات والوثائق وجدت عند سيدة على الحدود الجزائرية المغربية كانت متجهة إلى الوطنيين الإسبان بملييلية ، مما استرعى إلقاء القبض على زوجها السيد بارجي طبيب أسنان بوهران بتهمة التعاون مع قوات فرانكو ، (فرانسيس كورنييه).
- (34) - الموقف المغربي يقول بان عدد الجنود في صفوف الجمهورية الاسبانية من المملكة المغربية يعدون على أصابع اليد.
- (35) - رجل سياسي فرنسي اشتراكي ولد في أبريل 1872 ترأس حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية من 1936-1938 وإليه ينسب مشروع بلوم فيوليت لسنة 1936 الخاص بتجنيس النخبة الجزائرية ، توفي في 30 مارس 1950.
- (36) - Stora Benjamin : **Algérie-histoire contemporaine 1830-1988**, Casbah édition 2004, p336.

مشروع الوحدة المغاربية بين الماضي الاستعماري و التطلعات المستقبلية

أ.خلادي بلهادي*

يحدد المغرب العربي في إطاره الواسع من الأقطار الخمسة المستقلة هي الجزائر، المغرب تونس، ليبيا و موريتانيا في انتظار اكتمال جغرافيته الواسعة عند إيجاد حل نهائي لقضية الصحراء الغربية ، و قد شكل عبر محطاته التاريخية المتعاقبة فضاء حضاريا حقيقيا مزج بين الأصالة العربية والإفريقية المتداخلة ضمن مجموعة البحر الأبيض المتوسط (1)

مما أمدّه ذلك خصوصية مميزة أثرت في علاقاته مع البلدان المتوسطية و أهله في أن يلعب أدورا إستراتيجية في العلاقات الدولية(2) فالأى حد تضافرت جهود تلك الأقطار المغاربية في دحر الاستعمار القديم و الحديث و إحباط نواياه و سياساته التعسفية ضد شعوبها ؟ كيف نمت الشعور الوحدوي في ظل تلك الظروف؟ و ما هي الاتجاهات الفكرية و السياسية التي دفعت بهذا الاتجاه إلى تجسيده على ارض الواقع.

هل تجدد الوعي الوحدوي عند الحركات الوطنية المغاربية بعد أن تمكنت من افتكاك سيادتها قصد إيجاد مسار حقيقي لبلوغ المرامي الوحدوية ؟ ما مستقبل المشروع المغاربي في ظل التحديات الدولية و مستجدات العلاقات الدولية.

لقد نشأت الحركات الوطنية المغاربية في خضم الصراع مع الاستعمار، و أخذت على عاتقها رسالة تعبئة شعوبها و الدفع بها إلى واحدة من أعظم ملاحم القرن.(3)

لقد كان الاستعمار ظاهرة تاريخية متعددة الأسباب و متنوعة المرامي و وليد طبيعي للنظام الرأس مالي الذي هو بدوره محصلة لمسار تطوري تاريخي شهدته أوروبا الغربية في العصر الحديث، ليتحول خلال القرن التاسع عشر إلى منظومة فاعلة و قاهرة ضد الشعوب المتأخرة حضاريا بما فيها الشعوب المغاربية .

* أستاذ مساعد قسم التاريخ جامعة بشار.

و بما أن التجربة الوجودية المغاربية بقيت خلال مراحلها حقيقة فاعلة فإنها عرفت النهوض و التقهقر في آن واحد إذ هي من حيث دوافعها في حقيقة الأمر سوى رد فعل استجابي لمخاطر خارجية مهددة و مسلكا مناهضا لكل أشكال الهيمنة المفروضة من الطرف المتسلط. (4)

و قد ارتبطت فكرة المغرب العربي الموحد بالوعي المغاربي المبكر حيث برزت الجمعيات و الأحزاب السياسية الوطنية المغاربية في العشرينيات و الثلاثينات من نفس القرن انطلاقا من خصوصية كل قطر، و أعطت مفهوما عميقا للوحدة على أنها تحرير بلدان المغرب قاطبة من الهيمنة الاستعمارية بتدبير و إرادة شعوبها الحرة.

و من اجل تحقيق تلك الأهداف اجتمع المغاربة في العشرينيات من القرن الماضي في جبهة واحدة فأسسوا جمعية الدفاع عن حقوق مسلمي شمال إفريقيا، كان أبرزها نجم شمال إفريقيا. (5)

الذي اتخذ من جريدة الأمة لسان حال النضال برعاية مصالي الحاج حيث جاء في عددها الخامس من ديسمبر 1935 على أن النجم لا يعمل للجزائر فقط بل يمتد نشاطه إلى كامل شمال إفريقيا ليشمل الأفارقة الشماليين و قد كلفت تلك القنطرة الوجودية المعبر عنها ستة أشهر سحنا لمصالي الحاج. (6)

و قد سارت على نفس الخطى مختلف الحركات الوطنية المغاربية نذكر منها جمعية شبان شمال إفريقيا و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على عاتقها رسالة بث الوعي القومي العربي داخل تونس و المغرب. (7)

لقد ازدادت الحاجة إلى التواصل و الدفع بالمشروع الوجودي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، و ازدادت الرغبة معها في التشاور و التنسيق خاصة عقب مجازر 8 ماي 1945 و ترسخت في أذهان المغاربة ضرورة العمل المسلح بعد أن تشبعت بالأفكار السياسية الثورية و نحو تجسيد هذا التوجه عقد القادة المغاربة بين 15-22 فبراير 1947 مؤتمر المغرب العربي بحضور أمين الجامعة العربية و شخصيات أخرى بهدف إظهار التضامن المغاربي بالمظهر اللائق خدمة للقضية التحررية و إبراز أهدافها.

وتم خلال هذا اللقاء الإعلان عن بطلان معاهدة الحماية المفروضة على المغرب و تونس وعدم الاعتراف لأي حق لفرنسا في الجزائر، كما تقرر تأسيس مكتب العربي بالقاهرة بمشاركة حزب الدستور الجديد و الاستقلال حتى يقوم بالدور الدعائي على المستوى المغاربي و الدولي لفائدة استقلال شمال

إفريقيا و تشكلت في ديسمبر 1948 لجنة تحرير المغرب العربي برئاسة عبد الكريم الخطابي الذي جاء في نص ميثاقها " إن المغرب العربي بالإسلام عاش وعلى الإسلام يستقر في حياته المستقبلية وانه جزء لا يتجزأ من البلاد العربية و تعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدر المساواة." إن مكتب المغرب العربي و لجنة المغرب العربي والجامعة العربية حضيت بمكانة خاصة من حيث معالجتها النضالية والتوعية والإعلامية والأدبية في تعميق العمل المغاربي المشترك إذ عبر الأمين العام للجامعة العربية عبد الرحمان باشا عزام سنة 1948 قائلا " دعاني إخواني ممثلو الحركات الوطنية المغربية في المشرق العربي لأترأس مؤتمرها الأول فلبيت دعوتهم و لا اعرف في حياتي أنني رفضت دعوة للمغاربة... إن المغاربة هم الذين حملوا دعوة الإسلام إلى أوروبا و نحن نذكر بفخر أثارهم في الأندلس و حضاراتهم بها..." (8)

وما يلتمس من مقررات مكتب المغرب العربي ولجنة المغرب العربي وجود خلاصات فكرية و سياسية عديدة كان مضمونها العام يؤثر لتطور مسيرة العمل المشترك بين الحركات الوطنية والمغربية ورفض النظام الاستعماري بكافة أشكاله و ألوانه علاوة على التوجه القومي العربي و الإسلامي. (9)

وأصبحت بذلك فكرة الوحدة توظف بإلهاب الجماهير المناضلة من جهة والضغط على الاحتلال من جهة أخرى، مبرهنة فعاليتها في ميدان السياسة و تحولت في الخمسينات في إطار مرجعي لحركة التحرير المسلحة التي كان لها أثر كبير على إفريقيا في كفاحها ضد الاستعمار.

بادر الملك محمد الخامس سنة 1956 في إقامة نوع من الاتحاد بين الأقطار الثلاثة في انتظار استقلال الجزائر والارتباط بتحالف مع فرنسا غير أن المبادرة انتهت بالفشل نتيجة تحويل الطائرة التي كانت تطل المفاوضات الجزائريين واعتقالهم من طرف السلطات الفرنسية 22 أكتوبر 1956 (10)

ورغم ذلك فإن الظروف السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الاجتماعية كانت تدفع بالمغاربة نحو العمل الوحدوي بعد أن رفضت السلطات الفرنسية إجلاء قواتها من قواعدهم العسكرية المرابطة في تونس والمغرب والتي اتخذتها منطلقا للعدوان على الثورة الجزائرية كما هو الشأن بالنسبة لقرية سيدي يوسف الحدودية 8 فبراير 1958 والتي كان الهدف منها كسر شوكة الثوار، إلى جانب ذلك إصرار فرنسا على أن الصحراء الجزائرية جزء من الصحراء الإفريقية الغربية

الفرنسية كل ذلك أدى بالمغاربة إلى ضرورة اللقاء لمواجهة الخصم العنيد في مؤتمر تاريخي عرف بمؤتمر طنجة 1958.

ويظهر من خلال مقررات المؤتمر أن القضية التي غلبت اهتمام الوفود الحاضرة مسألة الدفع بالجزائر نحو الاستقلال حتى تصبح عضوا فعالا ضمن الوحدة المغربية التي حدد المؤتمر شكلها الفدرالي دون أن يلقي الخصوصية القطرية مشددا على الاستمرارية .

والملاحظ أن المحاولات الحدودية التي جرت ما بين 1959-1963 لم تشهد تطورا ملموسا سوى ما حدث في افريل 1963 أين عقدت البلدان الثلاثة اجتماعا وزاريا بالرباط تمخض عنه بلاغ أصدره المؤتمر جاء فيه " إن الوزراء عكفوا على دراسة المشاكل المتعلقة بتنسيق السياسات بين الدول الثلاثة ، خصوصا اتجاه السوق الأوروبية المشتركة و تنسيق خطط التنمية والسياسات القومية و توحيد النظم القضائية و برامج التعليم (11)

وفي هذه الفترة بالذات فقد عكرت صفو العلاقات المغربية الجزائرية النزاع الحدودي المسلح مما عثر مسار العمل الحدودي إلى حين لبنة أولى حتى دخلت العلاقات المغربية سنة 1964 مرحلة التسارع التي عرفت إبرام اتفاقيات التعاون ، فشكلت خلالها القضايا الاقتصادية الاهتمام الأول واعتمد المدخل الاقتصادي بديلا للمقرب السياسي. (12)

وخلال الستينات عقدت عدة اجتماعات أعطت لمفهوم الوحدة مفهوما جديدا بتوضيح أسسه و وسائله و أدواته المؤسسية نذكر منها مايلي:

مؤتمر تونس 29 سبتمبر-1 أكتوبر 1964

مؤتمر طنجة 26-28 نوفمبر 1964

مؤتمر طرابلس 2-27 ماي 1965

مؤتمر الجزائر 8-11 فبراير 1966

مؤتمر تونس 22-23 نوفمبر 1967

وتوصلت تلك الاجتماعات إلى إقرار نهج يتسم بالحيطة في معالجة قضايا التعاون بتركيزها على الأهداف العامة في مجال العلاقات التجارية والاقتصادية، وقد تبين ذلك فعلا في منتصف الستينات عندما لم تولي ليبيا اهتماما بالاندماج الإقليمي المغربي بل كانت رغبته في التعاون المغربي

محدودة وليس ادل من ذلك رفضها كل محاولة من الجزائر لتنسيق سياسة النفط بين البلدين، إذ كانت ترى في الجزائر منافسا في الأسواق النفطية العالمية و هو ما أثر فعلا على مسيرة المشروع.

ورغم التحسن الذي شهدته العلاقات الجزائرية المغربية إلا انه سرعان ما غمره التوتر السياسي من جديد الذي ازداد مع انفجار أزمة الصحراء الغربية سنة 1975 وأثرها المباشر في احتدام صراع المحاور الإقليمية بين المغرب والجزائر و إستراتيجية التطويق و المحاصرة لدى كل من الدولتين.

(13)

وتوتر العلاقات بين البلدين انقسم المغرب العربي إلى محورين هما محور المغرب موريتانيا و محور الجزائر ليبيا و رغم أن موريتانيا خرجت من الصراع سنة 1979 فإنها لم تفلح بالنأي بنفسها عن ذلك النزاع و عرفت العلاقات الجزائرية المغربية مدا و جزرا لا ينتهيان من فقدان التطبيع الكامل، سلما أن تطبيع العلاقات بين البلدين تمثل شرطا أساسيا من شروط نهوض اتحاد المغرب العربي. إن توقف التعاون المغربي ترجع أسبابه الحقيقية إلى النزاعات المفتعلة في المنطقة التباين في الاستراتيجيات الاقتصادية المحددة والمرسومة و المتبعة .

وتجدر الإشارة إلى أن تدابير الاقتصاد النفطي طوال سنوات السبعينات وما واكبه من مضاعفات سياسية واقتصادية ترتب عنه تمايز بين الأقطار وساهم في تعثر تعاون المغربي في غياب روح التضامن فيما بينها، حيث أن المعوقات الاقتصادية و محدودية الاستراتيجيات التنموية التي عرفتها بلدان المنطقة في بداية الثمانينيات أفرزت أوضاع اتسمت بالاختلالات الاقتصادية والمالية الداخلية و الخارجية ، فتفاقت المديونية و تعثرت التنمية المستقلة.

لقد باتت فكرة انجاز المشروع الوحدوي في هذه المرحلة أمرا ضروريا و حتمية تاريخية إقليمية ودولية حيث أن الاقتصاد العالمي أصبح يقوم على تجمعات اقتصادية متوسطة وكبيرة تتوحد عنها الأسواق و القوى المنتجة الأمر الذي اقتدى تجمعا مغاريا يقف أمامها من اجل تحاشي الوقوع تحت هيمنة القوى الاقتصادية الكبرى.(14)

وقد عرفت أقطار المنطقة منذ نهاية الثمانينات مناخا سياسيا سادته روح التفاؤل والحوار والتفاهم والنظر إلى المشكلات البينية بنوع من الواقعية حين تحرك مسئولوها نحو الوضع الطبيعي في العلاقات الأخوية فكان مفتاح ذلك التقارب المصالحة الجزائرية المغربية التي قامت على هامش مؤتمر القمة

لغربية الاستثنائية في زلدا بين 7- 10 جوان 1988 لقد أثمرت تلك الخطوات تأسيس الاتحاد المغربي 17 فبراير 1989 الذي شكل خطوة نوعية للوحدة المغربية.

كونه ظاهرة سياسية جديدة لم تعدها المنطقة من قبل في مجال العمل المشترك، حيث أن ميلاد الاتحاد جاء نتيجة الانفراج السياسي بين هذه البلدان وعودت العلاقات الدبلوماسية الجزائرية المغربية بعد قطيعة دامت 14 سنة كما صاحب ذلك الانفراج بروز الانفتاح الديمقراطي وانتعاش الحرية و تراجع الضغط الأجنبي على المنطقة والذي كان ناجما عن التجاذب الدولي بين المعسكرين الشرقي و الغربي في فترة سابقة.

لقد كان لبروز تحدي التكتل الأوروبي في مواجهة دول شمال إفريقيا و تراجع الاتحاد السوفياتي على الساحة الدولية أثرا في تشكل الاتحاد المغربي خاصة بعد فشل السياسات المحاور الثنائية بين الدول المغربية التي أدت إلى إضعاف كل الأقطار.

إن مسار الوحدة المغربية أعاقته حملة من المعوقات أثرت على تحسيده ميدانيا بشكل فعلي و عملي خدمة لشعوب المنطقة و تحقيقا لحلمها المنشود ، حيث سجل في جويلية 1990 تراجعاً في ديناميكية الوحدة نتيجة التغيرات السياسية التي طرأت على الساحة الجزائرية (15)

إلى جانب ذلك أزمة الخليج التي أفرزت اختلاف المواقف حول قرار إدانة العراق من عدمه و أزمات أخرى داخلية و خارجية كلها أرست تلك العقبات نحو الوحدة نذكر منها أزمة الصحراء الغربية و أزمة لوكا ري بين ليبيا و الولايات الأمريكية المتحدة و بريطانيا التي تطورت إلى فرض عقوبات دولية على ليبيا سنة 1992 .

و ظل الاتحاد المغربي معطلا منذ 1994 ولم تتمكن الدول المغربية من عقد قمة على الرغم من أن كل تلك الدول لم تترك أي مناسبة دون الإصرار على التمسك بالبناء المغربي دون جدوى و دون إبداء أي مرونة سياسية في مختلف القضايا العالقة فيما بينها وتأتي في مقدمتها مشكلة الصحراء الغربية إن المنظومة الدولية الحالية تسعى لتشكيل تكتلات واسعة حتى لا يعود لمفهوم السيادة الإقليمية و الخصوصية القومية الضيقة أي معنى أما المنافسة الإنتاجية في وجه الفضاءات الواسعة لكسب الرهانات القائمة .

إنها التحديات التي تواجه الدول المغاربة مستقبلا في المدى القصير ولن تتمكن من الاستمرارية ما لم تكن لها القدرة على الانسجام مع مقتضيات النسق العالمي الجديد و بماذا فان

الشراكة مع المجموعة المتوسطية تمثل تحديا كبيرا لاقتصاديات البلدان المغاربية ضمن السوق الأورو متوسطية عند قيام منطقة التبادل الحر و دخول المنتجات في مجال التنافس وقد تزداد الضغوط على الشركاء من اجل تحرير التجارة البينية ،و تعمل أيضا الولايات المتحدة على تكثيف ضغوطها على المجموعة المغاربية لتحرير القطاع الخاص وتطويره حتى ينسجم مع الهياكل الجديدة و زيادة استثمار والتبادل التجاري.

إن الدول المغاربية هي اليوم مطالبة بإعادة تجميع قدراتها وإمكانياتها المختلفة قصد إرساء منظومة علاقات بينية ذات الصلة الحقيقة بمصالح شعوبها والتي تأتي في مقدمتها الاندماج الكلي اقتصاديا وثقافيا حتى تؤسس من خلال ذلك أفاق إستراتيجية قابلة للتحدي والمجابهة وفرض الذات وتجسيد المعنى الحقيقي للسيادة الوطنية.

الهوامش:

- (1) بشير بومعزة: " تأملات فكرية حول المغرب العربي " ورقة قدمت إلى "وحدة المغرب العربي"(ندوة) ، بيروت مركز الدراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، 1987 ، ص 153.
- (2) مصطفى الكثيري ، حسن انصار ، العربي حمايدي : اتحاد المغرب العربي احد مداخل التكامل الاقتصادي العربي " مجلة دراسات عربية ، بيروت ، دار الطليعة ، عدد 13 كانون الأول ، 1989 ، ص 3.
- (3) بشير بومعزة : المرجع السابق ص 141
- (4) احمد المالكي : "الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي" ، سلسلة اطروحة دكتوراه (20) ، بيروت مركز الدراسات الوحدة العربية ، ط 2 ، 1994 ، ص 2.
- (5) C.R. Ageon ,la naissance de l'étoile nord africaine, recueil des conférences, l'étoile nord-africaine et mouvement national algérien, actes du colloque du 27 février au mai 1987 , ed. anep, années 2000, p83.
- (6) عبد الحميد زوزو : " الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين " ، 1914 ، 1939 ، ط 4 ، 2007 ، ص 150 npu. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- (7) محمد حربي : " الوطنيون الجزائريون و المغرب العربي " ، ورقة قدمت الى " وحدة المغرب العربي " (ندوة) بيروت ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، 1987 ، ص 71.
- (8) احمد مالكي : المرجع نفسه ، ص 348.
- (9) الطاهر ليب : " المغرب العربي بين الوحدة و الأصولية و خصوصية الوحدة " ورقة قدمت الى " وحدة المغرب العربي " (ندوة) بيروت ، مركز دراسات عربية ، ط 1 ، 1987 ، ص 81.

- (10) اسماعيل العربي : " التكتل و الاندماج الإقليمي بين الدول المتطورة " ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط 2 ، ص 128.
- (11) اسماعيل العربي : المرجع السابق ، ص 129-130.
- (12) مصطفى الكثري : المرجع السابق ، ص 8.
- (13) توفيق المدني : " اتحاد المغرب العربي بين الاحياء و التاجيل " دمشق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 2006 ، ص 30.
- (14) مصطفى التليلي : " أفاق اتحاد المغرب العربي ، مجلة المستقبل العربي " ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، عدد 132 ، فبراير 1990 ، ص 41.
- (15) محمد شعبان : " الاتجاه الإسلامي في الجزائر قبل 5 أكتوبر 1988 " مجلة الحوار ، باريس من فبراير 1989 ، ص 18-21.